الحرب على الإسلام في الغرب

الأخ نبيل شبيب

ظهر في أواخر العام الميلادي الماضي في ألمانيا الاتحادية كتاب بعنوان : (أبناء الصحراء)[١] يتمسّح كاتبه بالأسلوب العلمي في البحث ليقول عن حادثة شقّ بطن النبي ﷺ وهو طفل أنها في عرف الأطباء اليوم حالة من حالات (الصَرَع Epilepsie) بكلّ تأكيد ، وليقول عن حياته الخاصة وسط أعباء النبوة والدعوة إنها مثال واضح لـ (انفصام الشخصية
Schizophrenie) وليتحدث عن زيجاته بمن كانت أكبر منه أو أصغر بسنوات ويستنتج أنه كان –عليه الصلاة والسلام– مصاباً باضطرابات نفسانية وجنسية .. ثم ليصل من هذا وسواه إلى أن الإسلام كان من إنتاج (رجل مريض) ..

وظهرت في عام ١٩٧٥م الطبعة الثانية لكتاب مترجم عن الإنكليزية بعنوان : (الإسلام – عالم الدول المحمدية)[٢] يتحدث مؤلفه عن عهد المدينة –على سبيل المثال– فيقول : (لقد أراد محمد [ﷺ] كسب دعم اليهود في البداية فأصدر تعاليمه المشابهة لتعاليمهم ، مثل التوجّه إلى بيت المقدس في الصلاة ، حتى إذا يئس من دعمهم بدّل تعاليمه ليخالفهم ، كتغيير اتجاه القبلة واعتماد الأذان للدعوة إلى الصلاة وغير ذلك ..) ويقول المؤلف أيضاً : (وبعد الانتصار في غزوة الخندق فوجئ أهل يثرب بتنكّر محمد [ﷺ] لعهده مع اليهود وقتله إياهم بقسوة بالغة ليظهر تصميمه النهائي على عدم القبول في المستقبل بولاء سوى الولاء للإسلام)

ويقرأ المرء في كبرى الموسوعات (العلمية) الألمانية الحديثة الظهور[٣] تحت كلمة (محمد) [ﷺ] أن تساؤلاته الدينية كان نتيجةَ لقاءاته بجماعات يهودية ونصرانية ، وأنه بعد نجاحه عدّل أهدافه فبدأ يقول عن نفسه إنه خاتم الأنبياء ..

ويقرأ المرء في الموسوعة نفسها تحت كلمة (إسلام) ادعاءات مماثلة عن (الأصل اليهودي النصراني) للإسلام ، وأخرى مثل القول إنّ تحويل اتجاه القبلة عن بيت المقدس ما كان إلاّ بسبب عداء محمد [ﷺ] لليهود

ويقرأ المرء في معجم (المختار Readers Digest)[٤] باللغة الألمانية تحت كلمة (محمد) [ﷺ] أنه (مؤلف القرآن) ، وفي موسوعة (تاريخ العالم)[٥] الصادرة عن دار نشر (فيشر) الألمانية الكبرى أن القرآن كُتب بعد وفاة محمد [ﷺ] فكانت صورته الحالية مليئة بـ (الأخطاء) حافلة بـ (النقص) ..

وظهر في العام الميلادي الجاري كتاب سياحي بعنوان (قبة الصخرة)[٦] استهدف تشويه التاريخ الإسلاميّ في

فلسطين ، فتحدث عن الإسراء والمعراج وعن فتح عمر للقدس واستعادة صلاح الدين لها بأسلوب يخدم تلك الغاية ، كما نشر العديد من الصور المزعومة عن الرسول "ﷺ" مع التعليقات (المناسبة) عليها ..

وكان قد ظهر عام ١٩٧٠م كتاب سياحي مشابه بعنوان (الأماكن المقدسة في الأرض المقدسة)[٧] خَصص لتاريخ اليهود والنصارى في فلسطين ١٩٠ صفحة وحَشر التاريخ الإسلاميّ فيها في ٢٧ صفحة ، تحدّث بين سطورها عــن اليهود والنصارى أكثر مما تحدث على الإسلام والمسلمين ، فجاء فيه في معرض الحديث عن الإسراء مثلا : (ووصــل قبة الصخرة القائمة منذ زمن بعيد وسط ساحة هيكل سليمان) و(ما كان لمسجد الأقصى وجود أصلاً في حياة محمد [ﷺ]

ولو اتّسع المجال للتفصيل في هذه الأمثلة أو الاستزادة منها لملئت صفحات عديدة بما يرد من افتراءات مقــصودة على الإسلام ونبيه وتاريخه في كتب عديدة قديمة وحديثة تحفل بها المكتبات الغربية ، مثل : (وكان محمد نبــيهم) – العرب وعالمهم)[٨] ، و(محمد)[٩] ، و(الإسلام قديماً وحديثاً)[١٠] ، و(الإصلاح والثورة في العــالم الإســلاميّ)[١١] ، وغيرها ..

إنّ القارئ الغربي لا يعرف عن الإسلام إلاّ ما تردّده عمداً كتب المستشرقين ودراساتهم منذ قــرون فتُــصوّره في نظره ديناً أقرب إلى الوثنية منه إلى الوحدانية ، من صنع (رجل) لم يعرف سوى حيــاة (الحــرب) و(الجــنس) .. ومُسخت تعاليم الإسلام وشوّهت في نظر القارئ الغربي ، فأصبح لا يرى إلاّ (الحريم) في قصور السلاطين ، والملوك والأمراء القدماء والمحدثين ، فيعتقد أن هذا هو الإسلام .. وأُدخِل في روعه أن الإسلام هو المسؤول عن ذلك التــأخر المزري في مجتمعات المسلمين ..

ولم تقتصر الحرب على الإسلام في الغرب على الموسوعات (العلمية) والكتب السياحية والقصــصية ووســائل الإعلام المختلفة ، بل تركزت بصورة خاصة في الكتب والمناهج المدرسية لترسيخ تلك الصورة المشوّهة عن الإســلام في أذهان الجيل الناشئ .. وقد دُعيتُ مرة إلى مدرسة ثانوية للإجابة في ختام أحد الفصول الدراسية على أسئلة طلبة صف من الصفوف دُرِّسوا الإسلام إلى جانب (اليهودية) و(البوذية) وسواهما ، فكان أول سؤال وجهته إليَّ إحــدى الطالبات –من بين أسئلة عديدة تلته– هو : لماذا يُحرّم الإسلام على المرأة دخول الجنة ؟ .. فلمّا سألته عن مــصدر معلوماتها الخاطئة تلك أشارت إلى الأستاذ الواقف بجانبي فالتمس لنفسه العذر بالكتاب الدراسي الــذي اعتمــده ، وكان من طباعة دار نشر نصرانية كاثوليكية

وقد تضاعفت في السنوات الماضية الكتابات المباشرة عن الإسلام والمسلمين وغير المباشرة في ثنايا الحديث عــن البلاد الإسلاميّة وقضاياها المعاصرة ، وشمل ذلك سائر القطاعات الإعلامية كالكتاب والمقــال الــصحفي والتقريــر الإذاعي أو التلفزيوني .. وكنت أعتقد بأن الدوافع السياسية والاقتصادية وراء هذا الاهتمام قد تــساهم في تعــديل

الصورة المشوّهة التي نشرها المستشرقون عن الإسلام ونبيّه وتاريخه ، وفي التزام قسط من الموضوعية فيما يكتب ويقال .. ولكنَّ ألي هذا كان أسرع زوالاً من السراب

لقد عُدّت الوسائل لحرب الإسلام والمسلمين و لم تُعدّل الغايات .. وما كان تعديل الوسائل إلاّ لتصبح أكثر إقناعاً للقارئ الغربي الأوسع اطلاعاً من ذي قبل بأساليب أشدّ مكراً وأمضى فعالية

وليس تجنيد الرأي العام ليكون باستمرار ضد الإسلام والمسلمين إلى جزءاً من مجموع مخطط حـــرب الإســـلام والمسلمين على مختلف الجبهات في عالمنا المعاصر ، عالم الصراع العقائدي والفكري ..

وإنها لحرب تُستساغ فيها سائر السبل المنافية لكل مقياس ديني وكل اعتبار خلقي أو إنساني ، ولا يقام فيها للحقّ والعدالة والإنصاف وزن

وإذا كنا نرى الافتراء على الإسلام ونبي الإسلام وتاريخ الإسلام والمسلمين ولا نجد ردّاً عليه ، فإنّ ممّا يُجَـــرّئ أعداء الإسلام الصريحين على هذا الافتراء داخل أرضهم أنهم يرون الإسلام ملاحَقاً في أرضه فلا يجد النصير .. ويرون أبناء الإسلام يقتلون بالمئات بل بالألوف ولا يستجيب لاستغاثاتهم أحد ممّن يملكون الإمكانات في بلادهم .. ويرون دعاة الإسلام المخلصين يُلاحَقون ويسجنون ويضطهدون ويعذبون وربّما يُحرقون بالنار علناً فلا يرفع أحد عقيرتـــه بالاحتجاج –على الأقل– وإن رفعها في مناسبات عديدة أخرى دفاعاً عن الشيوعي أو الرأسمالي وربما عن اليهودي أو النصراني ..

أما الشيوعية العالمية فكم سارعت إلى تعبئة وسائلها الإعلامية والأدبية –على الأقل– للـــدفاع عـــن قـــضاياها والوقوف إلى جانب كل شيوعي يناضل في سبيل باطله أو يتعرض لخطر خارجي ..

وأما الرأسمالية الدولية فكم سارعت إلى تجنيد قواها الظاهرة والخفية للدفاع عن أفكارها ونصرة كـــل رأسمـــالي يتعرض لضيم أو يريد إلحاق ضيم بسواه ..

وأما الكنيسة النصرانية فكم سارعت إلى استخدام وسائل نفوذها ومراكز قوته عبر منظماتها ومؤسساتها المنتشرة في كل مكان من العالم للتبشير بالنصرانية والدفاع عن كلّ نصراني يستنجد بها في أية بقعة من الأرض ، ظالماً كان أم مظلوما ..

وأما اليهودية العالمية فكم استنفرت شبكة أجهزتها في أنحاء العالم واختلقت الأعذار إن لم توجد لتثبيت أفكارهـــا الصهيونية والتأكيد على تضامن أتباعها –على اختلاف ألوانهم وجنسياتهم ولغاتهم– لتحقيق أهداف مخططاتها الواحد بعد الآخر ..

ومما يفتح المجال على مصراعيه أمام من يريد الافتراء على الإسلام والمسلمين تقصير المسلمين الكبير في التعريـــف بدينهم باللغات الأجنبية وعلى المستوى المطلوب ، فضلاً عن تقصيرهم الأكبر في التعريف بإسلامهم عملياً عن طريق التطبيق الحيّ المنتج في سائر مجالات الحياة ، وفوق هذا تقصير المسؤولين وأصحاب الإمكانات في بلاد المسلمين عـــن تبني قضايا الإسلام ومصالح المسلمين في هذا المجال وغيره من المجالات

ولا تقتصر مسؤولية تلافي هذا التقصير الكبير على جهة دون أخرى .. فمن أبسط ما يفرضه الإسلام على أبنائه جميعاً الدفاع عنه والتعريف به على حقيقته ، ومن أبسط ما تفرضه مسؤولية الإسلام على المسؤولين توجيه إمكانات المسلمين لخدمته وخدمة قضاياه ..

فأصحاب الفكر والقلم القادرون على الكتابة باللغات الأجنبية مطالبون –حيث وجدوا– بالعمل على التعريـــف بالإسلام على حقيقته ، والدفاع عن قضاياه بالأسلوب المناسب

والجمعيات والروابط الإسلاميّة في ديار الغرب مطالبة بأخذ قسطها من العمل في هذا الميدان ومتابعة ما يكتـــب وينشر عن الإسلام والمسلمين والتعريف به قولاً وعملاً وكتابة –لمن يستطيع– بالأسلوب الموضوعي المقنع

والمسؤولون في بلادنا الإسلاميّة الذين ينفقون الأموال الطائلة في كل مجال من المجالات مطالبون بتوجيه إمكانات المسلمين على هذا الصعيد بما تفرضه عليهم مسؤوليتهم أمام الله تعالى ، كما أنهم مطالبون برفع مصلحة الإســـلام إلى مكانها الأول فوق كل مصلحة سواها ، وبالدفاع عن قضاياه بدل الدفاع عن قضايا أعدائـــه ، وبنـــصرة الـــدعاة المخلصين المجاهدين في كل مكان بدل الوقوف موقف المتفرج إزاء من يلاحقهم أو يضطهدهم أو موقف المـــشاركة المباشرة وغير المباشرة من ذلك .

1) Hans-George Behr, Sohne der Wüste-Kalifen, Händler und Gelehrte, Econ Verlag, Düsseldorf. 1975.
2) Desmond Stewart und die Redaktion der Time-Life-Bücher, Islam- Die mohammedanische Staatenwelt, Rowlt Verlag, März 1975 (2. Auflage).
3) Meyers enzyklopädisches Lekikon.
4) Readers Digest Universallexikon, Verlag Das Beste, Stuttgart, Zürich, Wien.
5) Fischer Weltgeschichte, Der Islam I, Hsg. Claude Cahen, Fischer Verlag, Frankfurt 1968.
6) Jerry M. Landay, Felsendom, Ebeling Verlag, Wiesbaden, 1976.
7) Christopher Hollis und Renald Brownring, Heilige Stätten im heiligen Land, mehrere Verlaghäuser, 1969.
8) Walter R. Fuchs, und Mohammed ist ihr Prophet - Die Araber und ihre Welt, Knaur Verlag, München-Zürig, 1975.
9) Umbrto Rizzitano, Mohamed, Somogy Verlag Paris und mehrere deutsche Verlagshäuser, 1959.
10) Traugott Mann, Der Islam einst und jetzt, Verlag von Velhagen und Klasing, Bielefeld und Leipzig, 1914.
11) Hrsg. Friedemann Büttner, Reform und Revolution in der islamischen Welt, List Verlag, München, 1971.